((**القناعة**))

د. عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف : <http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب : https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3\_Hje4JaCw

(( الأولى ))

تقول عائشة < دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَرَأَتْ فِرَاشَ رَسُولِ اللهِ قَطِيفَةٌ مَثْنِيَّةٌ، فَانْطَلَقَتْ فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِفِرَاشٍ حَشْوُهُ الصُّوفُ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ فَقَالَ: " مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟ " قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فُلَانَةٌ الْأَنْصَارِيَّةُ دَخَلَتْ عَلَيَّ، فَرَأَتْ فِرَاشَكَ فَذَهَبَتْ فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِهَذَا قَالَ: " رُدِّيهِ فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال: " رديه يَا عَائِشَةُ، فَوَاللهِ لَوْ شِئْتُ لَأَجْرَى اللهُ مَعِيَ جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ " صححه الألباني في السلسلة رقم 2484 .

وعائشة < تخاطب ابن اختها عروة بن الزبير عن سرٍّ من أسرار عيش النبي في تلك الحجرة النبوية، والبقعة الطاهرة التي شهدت نزول الوحي من السماء ، حيث قالت: وَاللهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتْ: «الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ» متفق عليه .

يا لله ..

ما أعظم هذه القدوة ! وما أجلَ هذه الأسوة !

إنه الرضا بما قسمه الله ، إنها القناعة

هي القناعةُ لا ترضَى بها بدلًا

فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدنِ

انظرْ لمن ملَك الدُّنيا بأجمعِها

هل راح منها بغير القطن والكفن

القناعة ثوبٌ لا يبلى ، وكنزٌ لا يفنى .

القناعة راحةٌ للبال، ورزقٌ واسع، القناعة هي الرضا بما قسمه الله قال تعالى : ((أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ)) الزخرف.

قال بعض المفسرين في قوله تعالى ( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ) النحل .

الحياة الطيبة في الدنيا هي القناعة . تفسير ابن كثير (4/601) .

وكان نبينا يدعو الله أن يرزقه القناعة، فعن ابن عباس { أن رسول الله كان يدعو: «اللَّهُمَّ قَنِّعْنِي بِمَا رَزَقْتَنِي، وَبَارِكْ لِي فِيه» [أخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي].

وكان يقول : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ» رواه مسلم . قال العلامة السعدي ~ هذه الثلاث جمعت خير الدين والدنيا .

بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار ص167.

ولكنْ .. من ينظرُ في أحوالِنا اليوم يرى عجباً وسخطاً وازدراءً للنعم.. يرى هموماً ليسَ لها إلا عدمُ القناعة والرِّضا بما كتبَ اللهُ.

فهذا فقيرٌ يتذمَّرُ من الفقرِ قَدَراً، ويرى حياتَه دونَ المالِ هَدَراً..

وهذا غنيٌّ قد ملَّ من مظاهرِ التَّرَفِ.. ولم يحسبْ كمْ من الأموالِ قد صَرفَ.. صغيرٌ يحسبُ الأيامَ ليَكبُرَ.. وكبيرٌ يتمنى لو عادتْ السنينُ ليصغَرَ.. مريضٌ يتسخَّطُّ من القَدَرِ.. وصحيحٌ يُعرِّضُ نفسَه للخَطَرِ.. مشغولٌ يبحثُ عن الرَّاحةِ.. وفارغٌ ملَّ من الاستراحةِ.. طالبٌ قد سئمَ من مقاعدِ الدِّراسةِ.. وموظفٌ قد أوجعتْ المسئوليَّةُ رأسَه.. عقيمٌ يرجو الإنجابَ.. وصاحبُ ولدٍ في عذابٍ.. وسيمٌ أشقاهُ الجَمالُ.. وقبيحٌ يشتكي الإهمالَ.. مشهورٌ ضاقتْ حياتُه بالشُّهرةِ.. ومغمورٌ يستميتُ في طلب الشَهرةِ.

صغيرٌ يطلبُ الكِبرا \*\*\* وشيخٌ ودَّ لو صَغُرا

وخالٍ يشتهي عملاً \*\*\* وذو عملٍ به ضَجِرا

وربُّ المالِ في تَعبٍ \*\*\* وفي تَعبٍ من افتَقَرا

وذو الأولادِ مهمومٌ \*\*\* وطَالبُهُم قد انفَطَرا

ومن فَقدَ الجمالَ شكا \*\*\* وقد يَشكو الذي بُهِرا

ويشقى المرءُ مُنهزِماً \*\*\* ولا يرتاحُ مُنتَصِرا

ويَبغى المجدَ في لهفٍ \*\*\* فإن يَظفرْ به فَتَرا

شَكاةٌ مالَها حَكَمٌ \*\*\* سوى الخَصْمَيْنِ إن حَضَرا

فَهَلْ؟ حَارُوا مَعَ الأَقْدَارِ \*\*\* أَمْ هُمْ حَيَّرُوا الْقَدَرا ؟

فالعاقلُ هو الذي يعلمُ أنّ العزّ كلّ العزّ في الرّضا والقناعة ، وأن الذلّ والهوان في الجشع والطمع ، فأقدارَ اللهِ -تعالى- عليه كائنةٌ لا محالةَ.. والمولى جلّ وعلا يُخاطبُ نبيَّه : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) [الأعراف: 188].

فلماذا الحزنُ والسخط؟

مرَّ إبراهيمُ بنُ أدهمَ على رجلٍ حزينٍ مهمومٍ فقالَ له: "إني سأسألُكَ عن ثلاثةٍ فأجبني، فقالَ الرجلُ الحزينُ: نعم، فقالَ: إبراهيمُ: أيجري في هذا الكونِ شَيءٌ لا يُريده اللهُ؟، فقالَ الرجلُ: لا، فقالَ إبراهيمُ: أفينقصُ من رزقِك شيءٌ قَدَّره اللهُ؟، فقالَ الرجلُ: لا، قالَ إبراهيمُ: أفينقصُ من أجلِك لحظةٌ كتبَها اللهُ؟، فقالَ الرجلُ: لا، قالَ إبراهيمُ: فعَلامَ الحُزنُ؟!"

كان محمد بن واسع ~ يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: «من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد»

إحياء علوم الدين (3/239).

ولكنّ النفس يا عباد الله إذا لم تلجم بلجام القناعة والرضا ، تمرّدت ، وطغت، وبغت ، وتوسّعت في المشتريات ، والكماليات ، والتوافهِ من العروضات، التي أشغلتنا وأشغلت نساءنا، دون تدبير وحسن تقدير، فتتضخّم ميزانية العبد ، وتتضاعف مصروفاته ، وتتوالى ديونه ، وصدق من قال : ( من اشترى ما لا يحتاج إليه ، باع ما يحتاج إليه ).

ورحم الله الشافعي يوم قال :

رَأيْتُ القنَاعَة َ رَأْسَ الغنَى

فصِرتُ بأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكْ

فلا ذا يراني على بابهِ

وَلا ذا يَرَاني بهِ مُنْهمِكْ

فصرتُ غَنِيّاً بِلا دِرْهَم

أمرُّ على النَّاسِ شبهَ الملك

يا كرام العبد بحاجة ، أن يرضى عن الله ، ويرضى بما قسمه الله له ، ويقنع بما رزقه الله ، وينظر في هذه الدنيا إلى من دونه ، فوربّ الجنّة والناس ، سيجد من هو أضعف منه حالاً ، وأقلّ منه مالاً ، ومن يتمنّى بيتاً وعيالاً ، من هنا يقول : «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ» رواه مسلم .

الله أكبر ، يا لها من وصيّةٍ نافعة ، وكلمةٍ شافية ، وسياسةٍ نبويةٍ رائعة ، ودواءٍ لقلوبنا وجوارحنا التي شخصت إلى من فوقها ، فازدرت نعمة الله عليها ، فقلّ أن ترى شاكراً ، قلّ أن ترى راضياً قنوعاً ، ترى الواحدُ منّا يتقلّب في نعم الله تعالى ،

«آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًا فِي جِسْمِهِ عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ» يشاهد المرضى على الأسرّة البيضاء ، والمشردين والمنكوبين والجائعين والخائفين في الصحراء يلتحفون السماء ابتلوا بأعظم البلاء ، يرى من نزلت بهم الديون والهموم ، فأودعوا في السجون ، يشاهد من استولت عليهم الأحزان والوساوس ، وهو غافل عن نعم الله ، لا ينظر إلى من هو دونه بل ينظر إلى من هو فوقه ، فتراه قد حرم الرضا عمّا قسم الله له.

والنفـسُ راغـبـةٌ إذا رغّبتَـهـا

وإذا تُـرَدُّ إلـى قلـيـلٍ تـقنعُ

العَبدُ عَبدُ النَفسِ فِي شَهَوَاتِها

والحرُّ يشبعُ مرة ً ويجوعُ

والله يقول في كتابه لعبده الذي أختاره واصطفاه موسى (( فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ )) الأعراف .

قال بعض المفسرين : (( لا تنظر إلى ما منعتك، بل اذكر أني اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لي هذا. ولذا يجب على الإِنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقي له من النعم. لا إلى ما سلب عنه من النعم)) تفسير الشعراوي (7/4346).

كَانَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ اسْتُسْقِيَ بَطْنُهُ، فَبَقِيَ مُلْقًى عَلَى ظَهْرِهِ مُدَّةً طَوِيلَةً، بَلَغَتْ ثَلاثِينَ سَنَةً، لَا يَقُومُ وَلَا يَقْعُدُ.. وَقَدْ نُقِبَ لَهُ فِي سَرِيرِهِ مَوْضِعٌ لِحَاجَتِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الشِّخِّيرُ، فَجَعَلَ يَبْكِي لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِ، فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ: "لِمَ تَبْكِي؟، فَقَالَ: لِأَنِّي أَرَاكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْفَظِيعَةِ، فَقَالَ: لَا تَبْكِ، فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَيْهِ –أيْ: أحبُّ الأمورِ ما أحبَّهُ اللهُ لي-، وَقَالَ: أُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِ، وَاكْتُمْ عَلَيَّ حَتَّى أَمُوتَ، إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَزُورُنِي فَآنَسُ بِهَا، وَتُسَلِّمُ عَلَيَّ فَأَسْمَعُ تَسْلِيمَهَا".

إنها القُلوبُ الرَّاضيَّةُ.. إنها النُّفوسُ المُطمئنَّةُ.. نفوسٌ كبيرةٌ.. بربِّها خبيرةٌ.. فتعلمُ أنه ما منعَ إلا ليُعطيَ.. وما ابتلى إلا ليجزيَ.. وأنَّ ما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقى.

عبدالله ألا يسعى أحدنا ليكون من أغنى الناس؟ بلى ، فاستمع لهذِه الوصيَّةِ النبوية من سيّد ولد آدم وهو يقول لأبي هُرَيرَةَ : «مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ»؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ: «اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ» رواه الترمذي وحسنه الألباني في السلسلة (930) .

**أقول قولي هذا واستغفروا الله العظيم**

(( الثانية ))

كان الإمام العلامة المفسر محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ~ قنوعاً بما رزقه الله، زاهداً في الدنيا، عفيفاً عما في أيدي الناس، كريماً بما يملك.

ذكر عنه تلميذه الشيخ عطية سالم ~ : أن الدنيا لم تكن تساوي عنده شيئا ، ومنذ وجوده في المملكة ، وصلته بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاء ، ولا مرتبا ، ولا ترفيعاً لمرتبه ، ولا حصولاً على مكافأة ، أو علاوة. ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه ، وما حصل عليه لم يكن ليستبقيه بل يوزعه في حينه على المعوزين من أرامل، وأيتام. ومات ولم يخلف درهما ولا دينارا وكان مستغنياً بعفته وقناعته. بل إن حقه الخاص ليتركه تعففاً عنه كما فعل في مؤلفاته العلمية. لم يقبل التكسب بها وتركها لطلبة العلم. وسمعته يقول: لقد جئت من البلاد بكنز عظيم يكفيني مدى الحياة وأخشى عليه الضياع. فقلت له وما هو قال القناعة. وكان شعاره في ذلك:

الجوع يطرد بالرغيف اليابس

فعلام تكثر حسرتي ووساوسي

أخي ... عشْ سعيداً، عن الهمومِ بعيداً، واعلم أن لكَ ربَّاً جليلاً، فسترى الوجودَ جميلاً، فو اللهِ لو كُشفَ لكَ الغيبُ، لعلمتْ أن قضاءَ اللهِ خيرٌ وأفضلُ، لأنَّه أرحمُ بكَ من أبيكَ وأمِّكَ بل وأرحمُ بكَ من نفسِك، وقُلْ كما قالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فِي دُعَائِهِ‏:‏ "وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ".

الْعَبْدُ ذُو ضَجَرٍ، وَالرَّبُّ ذُو قَدَرٍ

وَالدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ، وَالرِّزْقُ مَقْسُومُ

وَالْخَيْرُ أَجْمَعُ فِيمَا اخْتَارَ خَالِقُنَا

وَفِي اخْتِيَارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ وَالشُّومُ‏

يقول : عَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ -رَحِمَهُ اللهُ- َ: "مَا أُبَالِي مَا فَاتَنِي مِنَ الدُّنْيَا بَعْدَ آيَاتٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَوْلُهُ تَعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا) [هود:6]. وَقَوْلُهُ: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الأنعام: 17].

فإذا أردتَ أن تشكو فاشكُ إلى السَّميعِ البَّصيرِ.. وإياكَ أن تشكو إلى النَّاسِ من أقدارِ العليمِ الخبيرِ.. وإذا أردتَ أن تطلبَ فاطلبْ من العزيزِ القديرِ.. فإن أجابَ فنَعمْ ،فالكلُّ لفضلِه مُحتاجونَ..

فإن أمسكَ فلحكمةٍ ورحمةٍ للعبدِ ((وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)) [يونس:107].